(المعيبر) مهنة تقاذفتها السنون وأحالتها في زمننا الحاضر إلى ظروف البلد الأمنية، فحينما يكثر وجود سيطرات القوى الأمنية وقطع الجسور، تنطبق مقولة (مصائب قوم عند قوم فوائد) حيث تنتعش مهنتهم وتزداد الحاجة الى المعيبر أو البلام ليقوم بنقل الناس من ضفة إلى أخرى. ولكن ما ان ينتهي وقت الإنذار وتعود الأمور الى طبيعتها ، تجد الكساد يرافق حال البلامة فتصبح بلامهم مقاهي شاطئية للتسامر والحديث، وكوننا لا نريد الغوص في البلم الذي تناولته الكثير من الأفلام والمرئيات فإننا في موضوعنا هذا حاورنا المتبقين من أصحاب هذه المهنة الموشكة على الانقراض لنكشف عن ذكرياتهم ولواعجهم فهم وان ذوت خدماتهم، علينا أن نعيلهم ونستفيد من خبراتهم وحكاياتهم..

□ كتابة وتصوير / فرات إبراهيم

دجلة حاضنة الأفراح أصبحت مكباً للقاذورات!

(البلامة) مهنة تنتعش مع الزحام وسيطرات النهر تعيق عملها

"أحمد شوقي" في قصيدة رائعة لهُ:
يا شراعاً وراءَ دِجلةَ يَجرِي في دموعي تجنّبتكَ العَوادي

وهو تعبير دقيق عن هيبة ذلك النهر، بأن جعل الشراع وراءه ولَم يجعله فيه أو أمامه، فهو (الشراع) لا يستطيع أنْ يُسابق دجلة، الذي لا يسابقه إلا دجلة نفسه، وقد غناها موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب..

يقول أبو علي - وهو بلام قديم عمل لسنوات في هذا النهر - بان دجلة الخير صارت مكانا للنفايات والسلع البالية من مراكب قديمة لم يتم رفعها أو تخليص النهر منها وإعادة جمال ذلك النهر الذي كان ملاذا لكل أهل بغداد، ويبدو أن هذا النهر قد كتب عليه أن يظل أسيراً إما لبيوت المسؤولين أو لقصور الأنظمة المتعاقبة التي جعلت من النهر متنفسا لعوائلها وخدمة المناطق التي أمامها ونسيت كل العراق واهله.

مزاح وأغانٍ وجثث

وكان هذا النهر حكرا لمن يمتطي الرئاسة والمسؤولية ، ويستذكر أبو علي أيام الفتنة الطائفية التي ضربت العراق، حيث يقول كانت أياما سوداء فقد نصحو كل يوم لنرى عددا من الجثث الملقاة في النهر التي نقوم بإبلاغ السلطات عنها حتى بات الواحد منا لا يرغب بالخروج الى العمل بسبب تلك المناظر التي تدمع العين وتدمي القلوب ، ويتحسر أبو علي حسرة طويلة بعد سماعه سؤالي عن أجمل الأيام والذكريات التي ما زالت عالقة في ذهنه حتى اليوم، فيقول إنها كثيرة ومن الصعب إحصاؤها فقد كانت العوائل البغدادية تتسامر وتفرح كثيرا، حينما كانت العائلة بأكملها تصعد داخل البلم فيبدأ المزاح والأغاني وتوزيع الحلويات والأكل، لقد كنا نشعر بفرح غامر لكل هذا ولا نطلب إلا القليل من المال لان خمسة دراهم أو ستة كانت كافية لان ينام البلام مطمئنا على حياة عائلته من العوز أو الفقر ..

من بلام إلى إرهابي

لاشك أن الدولة وبكل أجهزتها الأمنية تبذل الكثير من الجهد والوقت في سبيل أن يشعر المواطن بالأمن والأمان، وأجد أن هذا الأمر يعد الهدف الأسمى والأغلى لحكومة تسعى جاهدة لبناء بلد لا يعصف به الإرهاب كما يشاء .

جند الإرهابيون كل حيلهم القذرة والدنيئة للنيل من مواطني هذا البلد ولم تهتز لهم شعرة في قاموس الأخلاق تجاه ما يفعلونه بهتك المحارم والمساجد وقتل الأطفال والشيوخ، فكانت أساليبهم الدنيئة تمس واقع الناس وموارد رزقهم، ومن ضمن هؤلاء هم البلامة حيث وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها قريبين من خط الاتهام بالإرهاب هذا ما حدثنا عنه البلام (احمد عامر) حيث يقول: تم منعنا أخيرا من قبل الجيش بنقل الناس إلى الضفة الأخرى المحاذية للبنك المركزي حيث كان الموظفون القادمون بعد انتهاء الدوام مصدر رزقنا لنقلهم إلى الضفة الأخرى، وكنا نتقاضى اجر ٢٥٠ دينارا عن كل شخص، نؤمن فيها قوت عوائلنا اليومي ،وتم تحويل سيرنا إلى الجهة المقابلة للإطفاء وكما ترى ان الناس لا يعبرون من هذا المنفذ لبعده عن مناطق عملهم وصاروا يترجلون الجسر، مشيا على الإقدام، أفضل لهم من هذه المسافة البعيدة، إضافة إلى أن الأجر تصاعد الى ٥٠٠ دينار للشخص الواحد ما ساهم هذا الأمر بقطع عيشنا ورزقنا الذي يؤمن أكثر من ٦٠ عائلة تعتاش على هذه المهنة.

وحينما سألته عن السبب في ذلك قال يدعون بأننا نعبر الإرهابيين من هذه المنطقة باتجاه البنك المركزي ،وتساءل البلام احمد عامر مستغربا كيف يحدث هذا وتوجد سيطرة على هذا الجانب من النهر وسيطرة على الجانب الأخر تقومان بتفتيش الناس الذاهبين والقادمين، وطالب الدولة ممثلة برئيس الوزراء بأن تجد لهم حلا لان موردهم الأساسي قد انقطع وهم بحاجة إلى سماع صوتهم بعد أن عبروا بذلك لأكثر من فضائية وصحيفة..

حينما يتحول النهر الجميل إلى كابوس

بانسيابيته التي تحاكي كل الخواطر وتأملات الشعراء وبهدوئه الجميل يتحول نهر دجلة في أوقات عصيبة إلى وحش كاسر وموئل لجثث الأحبة والأصدقاء، لا ينسى البلامة بأنهم - وعلى قدر اهتمامهم برزقهم اليومي بنقل الناس من ضفة إلى ضفة اخرى - وجدوا أنفسهم أمام مشاهد مرعبة لم يتعودوا مشاهدتها في هذا النهر، وهذا يعود إلى أيام الاقتتال الطائفي الذي حل بالبلد في سنوات ماضية .. عبد الله صاحب

غروب شمس ومراكب

الزميل المحرر مع شيخ البلامين

بأنتظار العمل

شيخ البلامة يستذكر

قلة من العاملين في هذه المهنة بقوا على قيد الحياة ، وإذا ما وجدنا احدهم فانه يرى في الكلام مضيعة للوقت لأنهم وبرأيهم لم تعد الصحافة أو الفضائيات لها كلمة مسموعة عند المسؤولين ويبررون قولهم هذا بان الكثير من المحطات الفضائية والصحف التقت بهم لكن لا حل لكل ما يعانونه.

ربما يكون البعض محقا في قوله إلا أننا حاولنا التوضيح بان الصحافة الصادقة وظيفتها نقل الواقع كما هو دون تزييف أو محاباة لهذا المسؤول أو ذاك، وينقطع دورها فقط بعد طرح المعلومة فهي ليست معنية بإيجاد الحلول ولكنها معنية باقتراح الحلول.

ويبدو أن شيخ البلامة تفهم قولي هذا، لطفي محمود آخر البلامة المهمين ، وجدته مشغولا بدهان بلمه بالبوية حينما حدثته عن أمر مهمتي لم يعطني أذنا صاغية، وحين استفسرت من الآخرين عن سبب وضعه وان كان يعاني من حالة مرضية، أكد لي الجميع انه بصحة جيدة لكنه تعب من كثرة الحوارات الصحفية والتلفزيونية التي يجدها لم تأت بنفع لمهنتهم ، حينها قررت أن استمع إليه فقط عن ذكرياته دون أن ابرز جهاز التسجيل واختزلت كلامه في ذاكرتي المتعبة من هموم الناس يقول : إن العبرة في أن يتجه الناس إلى (المعيبر) أو البلام قديمة في بغداد.

منعنا الجيش أخيرا من نقل الناس إلى الضفة الأخرى المحاذية للبنك المركزي

على قدر اهتمامهم برزقهم اليومي بنقل الناس من ضفة إلى ضفة اخرى، وجدوا أنفسهم أمام مشاهد مرعبة لم يتعودوا رؤيتها في هذا النهر

حركة الملاحة وتأثيرها

وقد كان هناك جسر خشب واحد وكان هذا الجسر كثير الانقطاع بسبب قدوم المراكب التي تحمل بضاعة من المحافظات الجنوبية او الشمالية، فيلجأ الناس إلى البلامة لعبور النهر وانه كانت حركة الملاحة قوية بسبب عدم وجود سيارات النقل الضخمة حيث كانت (الزنوبة) تجر مراكب تصل حمولتها إلى ٤٠٠ طن وكانت سريعة وتصل إلى البصرة في سبع ساعات حتى تصل إلى جسر الكوت الذي أنشأه الانكليز عام ١٩٣٩، فيتم تحوير الجسر ليتساوى فيه الماء من الضفتين فيسمح بعبور (الزنوبة) ويؤكد حجي لطيف انه لم يبق من أصحاب هذه المهنة القدامى سواه وان المراكب الحالية او (البلامة) لا يتجاوز عددها ٣٠ بلماً.

أما عن اهم المواقف التي واجهها في حياته المهنية فيقول بأنه ذات يوم نقل بمركبه أماً وابنها الشاب الى الضفة الأخرى ولكن في منتصف الطريق اهتاج هذا الشاب ورمى نفسه في النهر لكي يسبح وحاول هو ورفقاؤه إنقاذه لكنه غرق وفارق الحياة. ويؤكد بأنه صائد سمك لكن دجلة اليوم شحت ولم تعد مليئة بالأسماك، وأصبحت المياه ناقصة وهذا ما جعله يلجأ إلى مهنة البلام، سألته باني لا اعرف السباحة ومع هذا فأنا معك في هذا (البلم)، واشعر بالخوف من أن ينقلب فضحك وقال الصعود إلى البلم يحتاج الى قلب قوي وان نهر دجلة في بغداد غير مخيف لكن في شط العرب في البصرة من حقك أن تخاف لأنه كبير وأمواجه تتغلب على هذا البلم، ويتذكر لطفي أسماء أشهر البلامة في ذلك الوقت ومنهم البلام حسين عبود، حيث كان نجارا يقوم بصناعة القوارب، ومحمود بن عباس، وشكر ومحمود وأبو صبيح وعبود.

أخلاقيات المهنة وعرس النهر

لكل مهنة أخلاقها وتقاليدها ولا يجوز لأي شخص أن يتغاضى أو يتنكر للقيم والتقاليد السائدة هذا ما أكده احد البلامة ويدعى أبو شكر، ويشير إلى انه كانت في السابق أخلاقيات للمهنة، وعدم التجاوز على حقوق الآخرين، وان أصحاب تلك المهنة كانوا متفقين على تقاليد معينة، حيث لم يكن يسمح لأي شخص غريب بأن يدخل معهم في هذه المهنة دون أن يكون له أصل وفصل ويضمنه احد البلامة بسبب أن هذا الشخص قد يكون غير محترم، ويتصرف تصرفات طائشة مع العوائل والناس الذين يقوم بنقلهم إلى الضفة الأخرى من النهر.

ويؤكد أبو شكر وهو رجل تجاوز عمره العقد السادس ان تلك الأيام كانت جميلة وحميمة ويذكر انه مع البلامة الآخرين قاموا ذات مرة بإيصال موكب العروس الى الضفة الأخرى لكن بعد أن عملوا لهم زفة جميلة قي مراكب البلامة، حيث كانت الموسيقى والزغاريد البغدادية حاضرة، ما جعل الناس يتجمهرون على الضفتين لمشاهدة هذا العرس الجميل ..

الشعراء ودجلة الخالد

تغنى به الشعراء الكبار من العراق والعرب وأنشدت له حناجر المطربين أحلى الأغاني، فهل يستطيع المرء نسيان تغزل شاعر العرب الكبير الجواهري، حينما قال في قصيدته ذائعة الصيت (حييتُ سفحك عن بعد فحَييني .. يا دجلة الخير ، يا أمَّ البساتينِ).

كما قال فيه أمير الشعَراء الشاعر الكبير بلم يستذكر تلك الأيام بحسرة ويقول : شعرت بالذعر والخوف حينما وجدت جثة طافية لشخص مجهول الهوية وقد بان عليه انه مصاب بطلق في رأسه والقي في النهر، كان المشهد مأساويا ولم أر مثله من قبل لقد قضيت ليلتي مع الكوابيس المخيفة وكثيرا ما كنت أتساءل لمن تعود هذه الجثة ومن أين جاء بها النهر ومن أي منطقة.

كنا نبلغ الشرطة النهرية بذلك ليقوموا برفعها وتوالت تلك الصور يومياً حتى صار الأمر مفزعا فتركت العمل في هذه المهنة وتوجهت إلى الحمالة في منطقة الشورجة لكني عدت اليوم إليها لأني لا استطيع العمل في مهنة غيرها.

فيما يذكر احد المواطنين الذين يعبرون من خلال البلم إلى الضفة الاخرى بأنه لم يعد في ذلك الوقت يستخدم عبور النهر بالبلم لأنه شاهد صورا مرعبة ومخيفة ويذكر بأنه شاهد عددا من الجثث تطفو على سطح الماء وقد انتفخت وتحللت ويقول بأنه كان يعود إلى بيته راجلا عبر الجسر كي لا يشاهد تلك المناظر المخيفة التي لم يتعود العراقيون وخاصة ممن تقع بيوتهم بالقرب من النهر على تلك المناظر ويحمد الله بان زمن الاقتتال الطائفي قد انتهى لان العراقيين ليس من شيمهم وأخلاقهم ممارسة تلك الأفعال الدخيلة عليهم من أناس مأجورين من الخارج يساعدهم ضعاف النفوس على ذلك بسبب المال .

الدوائر المعنية تهمل النهر

كريم عبد الله هو الآخر ترك مهنة الصيد الجميلة حينها والتي كانت تلهيه عن المشاكل والهموم وغياب التعيينات لأنه وكما يقول صار يخاف من أن يصطاد جثة بدلا من السمك وانه ترك النهر سنوات على الرغم من صحبته له ومحبته لتلك الهواية القديمة لديه لكنه اليوم يعود بعد انقشاع تلك الغمة وانفراج الأزمة التي كادت تحيل العراق إلى ارض محروقة.

العراقيون ربما الشعب الوحيد في هذه الدنيا الذين حرموا من كل ما انعم الله عليهم من خيرات ونعم، فبلد يشقه نهران خالدان هما دجلة والفرات ويتغنى الشعراء والكتاب بعذوبة مائهما يستورد العراق مياها معدنية من دول لم تعرف غير ملوحة مياه البحر، بالأمس وأنا أتناول قنينة مياه معدنية مستوردة وجدت كتابة عليها تقول (مياه معدنية من أعماق ارض الكويت) ولا ادري لماذا خرجت مني ضحكة أثارت انتباه من حولي فما يعرفه العراقيون ومنذ سنين بأنهم يشربون مياه دجلة والفرات دون قناني أو معامل تعبئة لأنهم لا يرتوون من غير دجلة والفرات وكانوا يسمعون ويتندرون على دول الخليج التي كانت تأتي بكل الشركات لتقيم لهم محطات تحلية لمياههم ، حينما تنظر إلى دجلة الخير من على أي جسر في بغداد تجد الأوساخ والمراكب الصدئة والعاطلة ترسو على جرف هذا النهر وتجد الحشائش والزرع الطفيلي يحيل وجهة هذا النهر إلى كومة من الأنقاض ولا أدري حقا لماذا كل هذا الإهمال ولماذا لا تقام المشاريع والاستثمارات لإقامة كازينوهات أو مقاه تمارس فيه العائلة العراقية نزهتها وتجوالها ، في السابق كان النهر حكرا للحكومة ودوائرها المخابراتية ويمنع العراقي من التصوير أو حتى النظر بالاتجاه الآخر، واليوم يغض العراقي نظره عن جمال النهر لأنه يشعر بالغصة والألم لكل هذا الإهمال المقصود.

كريم عبد الله هو الآخر ترك مهنة الصيد الجميلة حينها والتي كانت تلهيه عن المشاكل والهموم وغياب التعيينات لأنه وكما يقول صار يخاف من أن يصطاد جثة بدلا من السمك!